

الفصل الثاني عشر

الدراسات العليا في بريطانيا

يتضمن هذا الفصل الأقسام التالية: ١- السفر إلى أكسفورد. ٢- الدراسة في جامعة درم. ٣-
"الحركة التصحيحية" في قطر ١٩٧٢

السفر إلى أكسفورد

قررت السفر إلى أكسفورد قبل أن يكون لدي تصور كامل عن الدراسات العليا في بريطانيا، فقد كانت بريطانيا هي خيار المنطقي فيما أحسب. وقد شجعني على ذلك وجود الصديق حسن نعمة في بريطانيا حيث سجل قبلي بعام في جامعة كمبردج، وتم أخيراً تحويل تسجيله لتحضير درجة الدكتوراة مباشرة دون حاجة للحصول على شهادة الماجستير.

بعد أن اجتازت زوجتي امتحان التوجيهية بنجاح، بدأت ترتيب حجوزات السفر إلى بريطانيا في شهر حزيران ١٩٧١. حجزت مكاناً لزوجتي ولي بمدرسة لتعليم اللغة الانجليزية اسمها Oxford Academy في مدينة أكسفورد. وكذلك حجزت لنا غرفة في فندق قريب منها اسمه Cotswold Lodge Hotel بناء على نصيحة المدرسة.

الفندق تملكه وتديره وتعمل به آنذاك عائلة يونانية. وهذا الفندق ما زال موجوداً في أكسفورد تملكه ذات العائلة وقد توسع وتحسن مستواه واشتهر مطعمه، وقد زرته خلال هذا الصيف ثلاث مرات. وهذا هو الحال في بريطانيا وخاصة مدينة أكسفورد، لا تقوض المباني القديمة فيها ولا تتغير مسارات الشوارع ولا تقطع الأشجار أو تطمس المعالم، وإنما تتحسن وتتطور المدينة وتنمو بشكل طبيعي، ويبقى الاصل شاهداً على نجاح حضارة التراكم في مقابل ثقافة اقتلاع الجذور التي نشهدها عندنا من هدم وإزالة وتفكيك وتشويه لتراثنا العزيز علينا، مهما تواضعت قيمته الحضارية.

بدأنا الدوام في مدرسة اللغة، وأخذت أزور مركز دراسات الشرق الاوسط في جامعة أكسفورد وأطلع على الكتب المتاحة في مكتبته، كي أبدأ عملية اختيار موضوع الدراسة الذي يجب أن يكون ذا علاقة بهوم المنطقة وقضاياها، وليس مجرد موضوعاً أتدرب فيه على البحث لنيل شهادة، كما يفعل بعض طلاب الدراسات العليا. وقد كانت قضية مدى الاستفادة من الموارد النفطية وسلامة توظيف عائداتها، من الموضوعات التي تدور في بالي.

أطلعت على كتب وبحوث وتقارير عديدة باللغة الانجليزية واللغة العربية في مكتبة المركز. وقد أعجبت بكتاب S.H. Longrigg, Oil in the Middle East – Its Discovery and Development الذي يؤرخ بالتفصيل لصناعة النفط في المنطقة ويتقصاها بلداً بلداً، وكذلك مجلدات مؤتمر البترول العربي وتقارير الاوبك والواوبك. هذا إضافة الى كتب سياسية واقتصادية باللغة العربية عن المنطقة، منها كتاب لشارل عيساوي حول التاريخ الاقتصادي للشرق الاوسط وكتاب آخر له بعنوان *Oil, the Middle East, and the world* على ما أذكر.

بعد قضاء اسبوعين في الفندق بحثنا عن شقة مناسبة فوجدناها في عمارة حديثة هادئة تملكها وتديرها جمعية الشابات المسيحيات YWCA غرفها مخصصة لسكن النساء بينما توجر الشقق

لمتزوجين. ولذلك عندما بدأت أرسل الجامعات وأضع عنوان الشقة كان الجواب يأتيني باعتباري أنسة تقيم في سكن الشابات المسيحيات.

قدمت طلب الالتحاق بالماجستير في جامعة Lancaster وجامعة Bristol من باب الاحتياط في حال لم يتيسر قبولي في إحدى الجامعات القديمة التي تكون فيها دراسة الدكتوراة من خلال البحث وليس من خلال المساقات الدراسية.

وفي هذه الاثناء قمنا بزيارة إلى مدينة كمبرج لزيارة حسن نعمة والتشاور معه. كانت رحلتنا بحافلة استغرقت حوالي ساعتين مباشرة من أكسفورد إلى كمبردج مروراً بعدد من المدن. وهذا الخط كان ولم يزل قائماً حتى اليوم بعد ٤٥ سنة منذ عرفته، بين المدينتين الجامعيتين العريقتين لكثرة التفاعل بين أساتذتهما وطلابهما.

استقبلنا حسن، كعادته بحسن الضيافة والكرم. واقترح علي ان أفكر في جامعة درم Durham فهي من الجامعات القديمة العريقة والمهتمة بدراسات المنطقة، ونظامها يتيح دراسة الدكتوراة من خلال البحث، ويمكن للطلاب ان يتم تحويله من دراسة الماجستير التي يقبل لتحضيرها في العادة، إلى تحضير رسالة الدكتوراه بعد مدة، ان كان بحثه يرقى إلى مستوى رسالة دكتوراه.

اتصل حسن مشكورا، أثناء وجودنا في ضيافته بمحمد غانم الرميحي الذي يدرس التطور الاجتماعي والسياسي في البحرين بجامعة درم، ولم أكن قد تعرفت عليه بعد. أبدى محمد الرميحي مشكورا استعداداً للتمهيد لي مع أحد الاساتذة المهتمين بالمنطقة، وطلب مني التفكير في موضوع الرسالة وأن أعد مخططاً أولياً لها. شرعت بعد عودتنا من كمبردج في القراءة المكثفة من أجل اختيار موضوع الرسالة وكتابة مخطط لها. وفي الوقت نفسه واصلت مع زوجتي دراسة اللغة الانجليزية.

تعرفنا من خلال وجودنا بمدرسة اللغة الى ثلاث طالبات كويتيات يدرسن اللغة معنا وأصبحن صديقات لزوجتي. لا أذكر أسماء أختين كريميتين منهن ولكن الأخت العزيزة فريال الفريح تذكرهما.

كانت فريال مخطوبة لعبد الله النيباري النائب الكويتي المعروف، وكانت تكثر الحديث كعادة المحبين عن عبد الله، فعلمت أن عبد الله بصدد الالتحاق بالدراسة في كلية سانت أنتونس بجامعة أكسفورد. ولكنه لم يلتحق بالدراسة قبل مغادرتنا لأكسفورد، وربما لو تعرفت على عبد الله ومن خلاله على بعض الاساتذة والدارسين في أكسفورد لوجدت لي قبولا هناك في كلية سانت انتونس، التي اصبحت Senior Associate Member فيها منذ عام ١٩٧٩ حتى الان.

أقضي شهور الصيف منذ ثلاثين عاما في أكسفورد، لاستكمال بحوثي وتنقيحها في بيئة جامعة أكسفورد العلمية، وإطار الحرية والتسهيلات الأكاديمية التي توفرها الجامعة لمنسوبيها. كما أشارك مع أخي الحبيب رغيذ الصلح والزملاء في تنظيم المؤتمرات السنوية لمشروع دراسات الديمقراطية منذ عام ١٩٩١، والتي بلغت واحد وعشرون مؤتمرا سنويا اخرها في عام ٢٠١٣.

كانت زوجتي حاملا في الأشهر الاولى ولذلك لم ننتقل كثيرا فيما عدا زيارتنا لكمبردج وزيارة لندن ودرم فيما بعد. اكتفينا بمدينة أكسفورد وهي مدينة هادئة آمنة عريقة من حيث الشكل المعماري تضم أقدم المباني التاريخية لكليات قديمة بنيت منذ مئات السنين بالحجر مضاف إليها مبانٍ بالطابوق الاحمر بدأت منذ مطلع الثورة الصناعية، شاهدة على النمو والتطور مع المحافظة على ما تم إنجازه.

ومدينة أكسفورد غنية أيضا بالمحتوى الفكري، ففيها أكبر المكتبات وأعرق الكليات الجامعية وأشهر الاساتذة العلماء المفكرين، الذين يندر أن تجد قضية عامة أو حوارا عاما في الصحافة وفي أجهزة الاعلام الأخرى لا ويساهمون في أبداء الرأي حوله. فضلا عن ابداء الرأي حول القضايا العامة، فالمشاركة في الحوار المجتمعي العام يعد وظيفة جوهرية من وظائف أساتذة الجامعات والمدرسين فيها، باعتبار أساتذت الجامعات قيادات فكرية في مختلف تخصصاتهم للدولة والمجتمع، حيث تكفل الجامعة حرية التعبير وتصون الحريات الاكاديمية فينمو الفكر وتتسع المعرفة.

وإلى جانب دور القيادة الفكرية يقوم أساتذة الجامعات بتقديم الاستشارات للحكومة والقطاع العام والخاص، فضلا عن تدريس طلاب الجامعات وأعداد الكوادر. وهذا ما نفتقده في جامعاتنا العربية التي تجمد وتعطل ثروتها الفكرية بسبب قمع حرية التعبير وغياب الحريات الاكاديمية، وتختصر مهمة ووظيفة الاستاذ الجامعي في تلقين الطلاب من كتب ومذكرات تجيزه الجامعة تدريسها.

وفي اكسفورد وحولها متنزهات فسيحة، ومنها في قلب المدينة منتزه الجامعة University Park الذي تبلغ مساحته عدة كيلومترات ويجري فيه نهر وقنوات مياه، وفيه بحيرة محمية غنية بطيور الاوز والبط وموطنا لزهور النرجس. يشكل المنتزه رئة المدينة ومتنفسها ويربط أطرافها بطرق ضيقة للمشاة بين اشجار معمرة وزهور معتنى بها.

وقد تمتعت دائما بالمشي في هذا المنتزه وما زلت حتى الوقت الحاضر عندما أمضي الصيف في مدينة أكسفورد، أمشي ساعة على الأقل يوميا هناك واقضي ساعة اخرى متأملا في الخضرة والماء، أستمتع من هاتفي لأغاني فيروز وأغنيات أم كلثوم ومنها " غلبت أصالح في روعي " و " أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا " .

وفي الغرب من المدينة يوجد مرعى Madows تاريخي كبير للخيل والأبقار، عبارة عن بساط سندسي أخضر على مد البصر، غني بالعشب محافظ على وضعه الطبيعي لا تسمح سلطات المدينة أن يقام عليه مبنى ولا حتى أن تزرع شجرة في غير المكان المخصص لها، يمر به نهر التايمز وبه أكثر من (مارينا) لرسو سفن النزهة والسياحة بين المقاطعات.

كما يوجد على مخرج النهر بعض المطاعم الشهيرة المتميزة مثل مطعم Trout Inn المشهور بسمك تروت النهري، والذي كنت أدعو عادة من يبقى في أكسفورد من الزملاء المشاركين في مؤتمرات مشروع دراسات الديمقراطية الى الغداء فيه، شريطة أن نذهب ونعود مشيا على الاقدام لحوالي ساعة في كل من الذهاب والإياب.

كان نتقلنا محصورا في شمالي مدينة أكسفورد بين مركز المدينة و Summer Town في منطقة تشبه الدلتا يقع في الشرق منها شارع Banbury وفي الغرب شارع Woodstock، الشارعان الطويلان المؤديان إلى قريتين جميلتين بنفس الاسماء. وكانت حركتنا غالبا مشيا على الاقدام أو بالحافلات المنتظمة المواعيد.

زارنا في أكسفورد عدد من الأصدقاء الأعزاء أذكر منهم حجر ومحمد العالي وعروسه لطيفة الحوطي عندما مروا على لندن في طريقهم الى الولايات المتحدة، وقضينا معهم وقتاً ممتعاً في زمن الشباب الجميل الحالم بوطن عربي مستقل حر وموحد مع بقية أجزائه.

عكفت على تحضير مقترح للدراسة بعد عودتنا من كمبردج، أقدمه لجامعة درهم عندما أحصل على موعد لمقابلة المشرف المحتمل، كما وعد أبو غانم محمد الرميحي. وبعد قراءات مكثفة في البيت وفي مكتبة مركز دراسات الشرق الاوسط التي اصبحت استعير منها الكتب، قررت ان يكون "نمط تخصيص عائدات النفط في امارات الخليج العربي وانعكاساته على التنمية" موضوع دراستي التي سوف تغطي الكويت والبحرين وقطر وأبو ظبي قبل ان تنشأ دولة الامارات العربية لاحقاً عند استقلال امارات ساحل عمان في ٢ ديسمبر ١٩٧١.

جذبت اقتصاديات النفط اهتمامي، منذ ان كتبت اول بحث لي حول النفط في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة. واقتصاديات النفط وبخاصة قلة الاستفادة من الإمكانيات التنموية التي تتيحها الموارد النفطية إلى جانب سوء استخدام عائداته، قد شكلا بالنسبة لي مركز متابعتي واهتمامي طوال حقبة نادي الطبيعة وسنوات دراستي وحقبة برادات الأمل. وكذلك شكلا موضوع انتقادي لأوضاع قطر وبقية الدول العربية المصدرة للنفط، وقد سنحت لي الفرصة أن أقدم دراسة علمية أكاديمية محكمة حولها.

وقد علق بعض الزملاء على الامر، بأن إصراري على بحث نمط تخصيص عائدات النفط وانعكاساتها على التنمية في المنطقة وقطر خاصة قد جاء ردة فعل لحرمانني شخصياً من عائدات النفط، او بالاحرى من الفئات الذي كان يرمى للمواطنين مقابل إخضاعهم وسلب إرادتهم. وقال البعض أن مثلي مثل من حرم من أكل التمر فأصبح يعد (الطعام) أي النوى.

اتصل محمد الرميحي في أواخر شهر أغسطس ١٩٧١ وأخبرني بأن Professor H. Bowen- Jones قد حدد يوم ٣ سبتمبر لمقابلتي في درم وعلي ان أحضر تصورا للدراسة التي أنوي القيام بها.

وبون-جونز هو أستاذ في كلية العلوم الاجتماعية في جامعة درم ومن الجغرافيين المعاصرين المشهورين في بريطانيا، لديه اهتمام بمشاكل التنمية والتخطيط العمراني وخبير في شئون امارات الخليج وعدد من المحميات البريطانية ومنها قطر، على صلة بوزارة الخارجية البريطانية وشركات النفط، والشخص الثاني في دائرة الجغرافيا بكلية العلوم الاجتماعية التي يرأسها المستشرق المعروف .W. Fisher

وجامعة درم هي ثالث جامعة قديمة عريقة في انجلترا نشأت بعد أكسفورد وكمبردج، وكانت في المرتبة الخامسة بين الجامعات الانجليزية في عام ٢٠١٠. تعود بداية جامعة درم إلى مئات السنين ولكنها حصلت على ميثاق تأسيسها من البرلمان الانجليزي عام ١٨٣٧ متأخرة بسبب احتكار أكسفورد وكمبردج لصفة الجامعات طوال ستمائة سنة. وقد كانت الجامعة الوحيدة في شمال انجلترا ومنها انبثقت عدة جامعات قريبة منها كانت كليات من جامعة درهم، أحدها جامعة Newcastle الشهيرة اليوم.

أما مدينة درم فهي عاصمة محافظة درم التي تغطي منطقة شمال شرق إنجلترا. تقع على نهر Wear وبها كاتدرائية رومانية شهيرة وكذلك قلعة تاريخية أصبحت مقرا لجامعة درم منذ عام ١٨٣٢. وتعتبر القلعة والكاتدرائية تراثا انسانيا وفق تصنيف اليونسكو.

كما أن درم إحدى معاقل الحركة العمالية المناضلة، تقام فيها مهرجانات عمالية سنوية ويشع منها أدب وأغاني الكادحين الحزينة، لوجود مناجم الفحم حولها وتأثير الاضرابات على أهلها ومعاناتهم من الصراع الطبقي في بريطانيا.

وبالرغم من وجود مناجم الفحم بكثرة في مقاطعة درم فإن ريفها من أجمل الارياف وبه العديد من المنتزهات المحمية National Parks على تلالها الخضراء المتدرجة.

سافرنا زوجتي وأنا إلى لندن وقضينا يومين ومن ثم غادرنا بالقطار إلى درم في رحلة بقطار سريع أستغرقت حوالي ٣ ساعات. وعندما وصولنا إلى درم كان محمد الرميحي الذي كنت التقيه لأول مرة، في انتظارنا في المحطة وقد تعهدنا هو وزوجته الاخت غنيمة ابنة عمه، بالرعاية وحسن الاستقبال وكرم الضيافة.

أخذنا محمد وزوجته إلى فندق، وبعد ان أوصلانا فندقتنا واطمأنا علينا قالا انهما سوف يتركاننا نرتاح وسوف يمران علينا في المساء لكي نتناول العشاء في منزلهما بحضور بعض الزملاء من العرب طلاب الدراسات العليا في درم. أما موعدني مع بون جونز فقد كان في صباح اليوم التالي، ٣ سبتمبر ١٩٧١.

في المساء ذهبنا إلى منزل آل رميحي للعشاء والتقينا بعدد من طلاب الدراسات العليا العرب في درم أذكر منهم محمد الرشيد من المملكة العربية وعلني خشيم من ليبيا وعدنان العقيل من الكويت، وزوجاتهم. وعلمت منهم أن عدد طلاب الدراسات العليا من العرب في جامعة درم يبلغ العشرات من مختلف الدول العربية. وأنهم نشطون محليا وبعضهم له دور في اتحاد الطلاب العرب في بريطانيا، وان رئيس الاتحاد من درم وهو زميلنا من العراق وميض نظمي، الذي تربطه علاقة فكرية وثيقة بدارس الرياضيات الشاب المتألق الناشط آنذاك ومازال مع فارق السن، علي الزامل من الكويت.

دار الحديث حول الشؤون والشجون العربية وكان كل شخص منا يتحدث بحذر ومجاملة محاولا التعرف على التوجهات السياسية للآخرين قبل ان يسترسل في الحديث. وبالرغم من ذلك تبينت إلى حد ما الاتجاهات الفكرية العامة للحضور، كما أظنهم قد تبيينوا توجهاتي، وعلى ذلك تشكل الانطباع الاولي لدي كل منا عن اتجاه الاخر وربما صنفه وحدد فسطاطه كعادة العرب بعد لقاء واحد.

تحدثت الى الزملاء عن موضوع دراستي والمخطط الذي انوي طرحه على بون-جونز صباح الغد، لعلهم يرشدونني إلى الاسلوب المناسب لطرح الموضوع والحصول على اهتمام المشرف المحتمل.

وقد وجدت لديهم اهتماما بالموضوع الذي انوي طرحه على المشرف في الغد وخشية علي من صعوبة اتمام البحث فيه، فكل المصادر الهامة المطلوبة لبحثي أما انها غير متوفرة بشكل كامل ودقيق مثل عائدات كل دولة من النفط او أنها سرية يصعب الوصول إليها، كما أن هناك محذورا من نشر

الحسابات الختامية للميزانيات العامة السرية ان وجدت والتي سوف اعتمد عليها في تحديد اوجه تخصيص عائدات النفط.

هذا هو أول انطباع احصل عليه حول موضوع دراستي الذي يبدو انه سوف يصل إلى اللحم الحي لنظم الحكم. أما انطباع الزملاء عن المشرف وإمكانية اهتمامه بالموضوع فقد كانت متضاربة. البعض قال لي أن المشرف مهتم بهذا الجانب ويحتاج إلى معرفة وجهة النظر المحلية حوله في سياق اهتمامه بالتنمية في المنطقة وتقديمه الاستشارات في جوانب منها الى حكومات الخليج ومنها قطر، وكذلك تقديمه الاستشارات لأطراف أخرى مهتمة بالمنطقة.

تحدثنا أيضا عن حاجتي الى سكن عائلي في درم في حالة حصولي على قبول. والسكن الجامعي للمتزوجين محدود ولا بد من الانتظار. وعلى ما أذكر فان محمد الرشيد من المملكة العربية أو علي خشيم من ليبيا، ذكر أن المشرف على رسالته في درم هو الدكتور فاروقي وهو أستاذ في كلية الدراسات الشرقية في جامعة درم، قد تعاقد مع جامعة الكويت لمدة عام واحد وربما يقبل تأجير منزله لهذه المدة، كما أبدى استعداده للاتصال به، إذا تم قبولي فربما يؤجرنا بيته إذا اطمأن إلينا.

جاء صباح يوم ٣ سبتمبر وانتقل تفكيري إلى كيفية عرض موضوعي وإقناع الاستاذ بأهميته ومقدرتي على القيام به. ذهبت لمقابلة بروفسر بون-جونز في مكتبه بدائرة الجغرافيا وهي من أهم وأكبر الدوائر الأكاديمية بجامعة درم تابعة لكلية العلوم الاجتماعية. استقبلني الاستاذ بالسؤال عن قطر وأحوالها وعرفت أنه كان مكلفا بدراسة إنشاء كلية التربية في قطر وهي كلية جامعية سوف تقوم بتدريس كافة التخصصات العلمية مع دراسة التربية والتعليم لتخريج معلمين ومعلمات قطريين وقطريات للعمل في وزارة التربية والتعليم. وسألني الأستاذ عن وضعي وهل لدي بعثة دراسية. فكنت معه صريحا، شرحت له وضعي وأفدته بأنه ليس لدي بعثة دراسية وإنما أنا قادر على توفير مصاريف دراستي.

قدمت مخطط الدراسة التي أنوي القيام بها وهي بعنوان

Arabian Gulf Emirates Oil Revenues: Patterns of Allocations and Impact on Development

تغطي الدراسة الكويت والبحرين وقطر وأبو ظبي: يتناول الفصل الأول: الحياة الاقتصادية والاجتماعية قبل عصر النفط. والفصل الثاني: تطور صناعة النفط في المنطقة وواقعها الراهن. والثالث: رصد وتحقيق إيرادات كل أمانة من النفط منذ بداية تصديره حتى عام ١٩٧٠. والفصول من الرابع إلى السابع يتناول كل منها عائدات النفط وأوجه تخصيصها في كل أمانة. والثامن يقارن نمط تخصيص عائدات النفط في الامارات الرابع. والفصل التاسع يتعرض لانعكاسات نمط تخصيص عائدات النفط على التنمية في الامارات المدروسة. والفصل العاشر يعرض الخلاصة والنتائج.

قرأ الأستاذ المخطط بعناية، رافعا عينيه من خلال النظارة ليلحظ وجهي بين فترة وأخرى، وأنا صامت محقق النظر متابع لكل سكتة وحركة منه وكأن الطير على رأسي في انتظار معرفة انطباعاته. وعندما أنتهى الأستاذ من القراءة قال لي، الوصول إلى كمية أنتاج النفط والتأكد من عائدات النفط

بالنسبة لكل أمانة، ممكن من خلال تحقيق المصادر العالمية المنشورة، ولكن كيف ستصل إلى نمط تخصيص عائدات النفط.

أذكر أنني رددت عليه بأننا إذا عرفنا مبلغ عائدات النفط لكل أمانة فإن علينا ان نفحص الحسابات الختامية للميزانية العامة ونضيف إليها أي تخصيص لعائدات النفط تم صرفه من خارج الميزانية بالنسبة للسنوات التي سوف يتاح لنا الحصول على حسابات ختامية لها. وهذا متاح بالنسبة للبحرين والكويت وعلينا البحث عنها في قطر وأبوظبي. وفي حالة عدم وجود تلك الحسابات الختامية ننطلق من المعلوم لتقدير المجهول. وفي كل الاحوال إذا تعذر علينا الحصول على ميزانيات وحساباتها الختامية لبعض السنوات في بعض الامارات فإننا نكتفي بعينة معقولة من السنوات، تشير إلى نمط تخصيص عائدات النفط.

أستمر بون-جونز في مناقشتي وكأنه يختبر مدى جدتي وأناي قد كتبت المقترح بنفسي وأدرك ما يتطلبه القيام به من جهد في البحث، كما أدرك مواقع الصعوبات والمحاذير. تطرق الى المراجع وبدا وكأنه يقترح علي مزيدا منها. وقبل نهاية اللقاء قال لي أين تقيم الان، قلت له أنني وزوجتي نقيم في مدينة أكسفورد ندرس اللغة الانجليزية وقد أو شكننا على نهاية الفصل الصيفي.

في ختام المقابلة قال لي أذهب إلى أكسفورد وأنه شؤونك هناك وتعال إلى درم، فأني سوف اوصي بقبولك في كلية العلوم الاجتماعية بجامعة درم لتقديم رسالة ماجستير، وسوف أشرف عليك وإذا احتجنا إلى اشراف في مجال المالية العامة سوف نستعين بالزملاء في دائرة الاقتصاد بكلية العلوم الاجتماعية. أذهب إلى أكسفورد وأنه أمر أقامتك هناك وتوجه إلى درم بصرف النظر عن وصول قبول رسمي إليك، فقد يأخذ ذلك بعض الوقت ولكنني قد قبلتك واستعد لبدء الإشراف على رسالتك حال وصولك إلى درهم.

فوجئت كما فوجئ الزملاء في درهم بسرعة استجابة المشرف وبدأنا نفكر في توفير سكن لي. وكان بيت الدكتور فاروقي هو أول ما فكرنا به. طلبنا من محمد الرشيد ان يتصل به ويعرض عليه. وبعد ان أتصل به وجد عنده استعدادا لتأجير البيت بدل تركه سنة دراسية خاليا ان اطمأن إلى من سيستأجر البيت ويحافظ عليه.

وفي صباح اليوم التالي ذهبت مع زوجتي بسيارة أجرة إلى المنزل وكان الدكتور فاروقي وهو من أصل عربي فلسطيني وزوجته من سوريا في انتظارنا. تعرفنا الى بعضنا البعض وأعجبنا بالمنزل فهو بيت فسيح به ثلاث غرف نوم وصالون وسفرة ومطبخ واسع وله حديقة وفي حي سكني جميل وبه جرامفون كان يصدح بأغنية أندلسية لفيروز حين دخلنا الصالون.

المنزل لا يبعد كثيرا عن مركز المدينة او كليات الجامعة ومبانيها حيث يمكنني أن أمشي حوالي ثلث ساعة للوصول الى مكان دراستي، وبالنسبة لزوجتي يمكنها استخدام الباص أو التاكسي لأن طبيعة مدينة درهم غير منبسطة وانما تقع المدينة على تلال تجعلك دائما تمشي صاعدا أو نازلا. اتفقنا على ان نستأجر المنزل من تاريخ سفرهم الى الكويت في حوالي منتصف سبتمبر ١٩٧١ إلى شهر يونيه ١٩٧٢ موعد عودتم إلى درهم.

ودعنا الصديق محمد الرميحي وزوجته السيدة غنيمة وشكرناهما على حسن الاستقبال وكرم الضيافة والمساعدة القيمة التي قام بها محمد والزملاء، والتي اختصرت علي طريقا طويلا من البحث عن مشرف مهتم بموضوع دراستي وجامعة عريقة تتيح تقديم رسائل الماجستير والدكتوراه عن طريق البحث بدل المساقات الدراسية.

غادرنا درم بالقطار إلى لندن ومن ثم إلى اكسفورد وبعد أسبوع أنهينا أقامتنا فيها واتجهنا شمالا إلى درهم حيث قضيت ثلاث سنوات من البحث نلت بمقتضاها شهادة الدكتوراة في العلوم الاجتماعية بتاريخ ٣ سبتمبر ١٩٧٤ أي بعد ثلاث سنوات بالتمام والكمال من يوم قبولي في جامعة درهم.

الدراسة في جامعة درم

وصلنا مدينة درم حوالي منتصف شهر سبتمبر. أقمنا في فندق قريب من البيت الذي استأجرناه، في انتظار سفر الدكتور فاروقي إلى الكويت والانتقال إلى المنزل.

ذهبت إلى الكلية الادارية التي انتمي إليها وتسمى Graduates Society لاستكمال إجراءات التسجيل وحجز سكن عائلي للعام الدراسي القادم. ذهبت إلى مكتب بون-جونز لاستكمال متطلبات التسجيل في كلية العلوم الاجتماعية وكذلك لتحديد موعد للقاء به. وقد تم تحديد موعد لمقابلته بعد ثلاثة أسابيع في أوائل شهر أكتوبر عندما تنتظم الدراسة.

التحقت بمدرسة لتعليم قيادة السيارات للتمرين على القيادة في بريطانيا والحصول على رخصة بريطانية. بدأنا نفكر في شراء سيارة، وقررنا بعد أن اجتزت امتحان القيادة أن نشترى سيارة فولكس واجن جديدة فضية اللون بسعر ٦٠٠ جنيه إسترليني.

بدأت زيارة مختلف فروع المكتبة في الجامعة والتعرف عليها وعلى مدى وجود مواد ذات علاقة بدراستي. وجدت الكثير من الكتب النظرية في مكتبات الجامعة ووجدت إحصاءات وتقارير حديثة وبحوثاً وكتباً تتعلق بالمنطقة في مقر توثيق دراسات الشرق الاوسط والدراسات الاسلامية، الذي ساهمت الكويت ومؤسسة جلبكيان في تمويله. وجلبكيان هو الوسيط الأرمني الذي حصل على امتياز شركة نفط العراق وتوابعها، من الباب العالي مقابل حصوله على ٥% من ارباح الشركة، ولذلك يسمى في صناعة النفط Mr. 5%.

وكذلك زرت مكتبة مدرسة الدراسات الشرقية والتقيت بمشرف الصديق محمد الرميحي والذي كان سفيراً لبريطانيا في الكويت قبل تقاعده. وفي قسم الاوراق الخاصة بمدرسة الدراسات الشرقية وجدت تقريراً عن البحرين وكنزا من التقارير عن قطر كتبها J.W.Commins بناء على تكليف من المستشار الانجليزي الذي أنشأ الادارة العامة في قطر وتولى رئاستها، حول إنشاء نظام ميزانية عامة وحساب ختامي لحكومة قطر، تبين منه لي نمط تخصيص عائدات الدولة من النفط في الفترة من ١٩٥٠-١٩٥٢. وهذه أول مرة أطلع فيها على نمط تخصيص عائدات النفط في بداية تدفقها.

وكذلك وجدت تقرير مراجعة الرواتب في قطر الذي صدر عام ١٩٥٥، والذي بيّن نشأة الادارة العامة في قطر مع بداية تصدير النفط في عام ١٩٤٩، كما تطرق التقرير إلى نمو عدد الموظفين في حكومة قطر من موظفين اثنين فقط قبل ١٩٤٩ إلى مئات الموظفين في عام ١٩٥٥.

فقد كان الحاكم قبل تصدير النفط يعتمد على لخويا والفاوية والخدم والوكلاء والمندوبين في تصريف الامور حسب أوامره المباشرة. وذلك قبل أن تنشأ إدارة عامة تحت رئاسة مستشار بريطاني، كما هو الحال في البحرين. ولذلك استمرت نظرة حكام دول المنطقة إلى الموظف العام باعتباره خويا أو فداويا عليه أن يعمل بحسب ولائه المطلق وتبعيته المباشرة للحاكم بما يأمره الحاكم دون اعتبار للقوانين

واللوائح. وهذا مختلف بل يتناقض مع مفهوم الموظف العام في الدولة الحديثة، حيث يكون ولاء الموظف العام للمصلحة العامة باعتباره راعياً وحارساً لها وفقاً للقانون.

وهذا المفهوم المشوه للموظف العام لدى حكام دول المنطقة ما زال سائداً وفعالاً، ولا يستمر اليوم في الوظيفة العامة من يتمسك بالقوانين واللوائح في مواجهة التعليمات العليا المخالفة لها، أو يتصرف وفق مسئولية الموظف العام ويحتمي بحصانة وظيفته من الناحية القانونية.

بعد عدة أيام من وصولنا إلى درم انتقلنا إلى البيت الذي استأجرناه واستقرت أحوالنا وذهبنا إلى المستشفى من أجل تسجيل أنفسنا في نظام الصحة الوطنية المجاني في انتظار المولود الجديد. وبعد أسابيع اجتزت امتحان القيادة واشترت الفولكس واجن الفضية التي أعجبنا بها بمبلغ ٦٠٠ جنيه، وبدأنا مثل بقية زملائنا العرب طلاب الدراسات العامة نذهب إلى مدينة نيو كاسل للتسوق خاصة لشراء الخضار واللحم من محل مشهور يملكه باكستاني.

وكذلك زرنا مدينة سندرلند للتسوق وقضاء يوم السبت هناك. أما يوم الأحد فغالبا ما كنا نخرج إلى ريف درم القريب الجميل ومنتزهاته المحمية. وبسبب بعد البيت الذي نسكنه عن السكن الجامعي لطلاب الدراسات العليا، فإن اختلاطنا العائلي بالزملاء لم يكن كثيراً ولم نتعرف إلى كافة الدارسين العرب في درم وعائلاتهم، إلا بعد انتقالنا في صيف عام ١٩٧٢ إلى حي Keeper Court حيث يسكن المتزوجون من طلاب الدراسات العليا وأغلبهم من العرب.

اتفقنا زوجتي وأنا، مع طالبة دراسات عليا انجليزية ذات خبرة في تدريس اللغة الانكليزية لغير الناطقين بها، على أن تعطينا دروساً في اللغة الانجليزية. وبدأت أتقل بين المكتبات بحثاً عن مصادر القراءة العامة الأولى وأطلع على الكتب. قررت أن أركز على الفصول الثلاثة الأولى من الدراسة مؤجلاً الفصول المتعلقة بنمط تخصيص عائدات النفط في كل إمارة إلى ما بعد زيارة ميدانية أقوم بها إلى الخليج فيما بعد.

التقيت بالمشرف بعد حوالي ثلاثة أسابيع من وصولنا إلى درم. كنت قد استقررت في السكن وأصبحت أعرف المكتبات واطلعت على بعض المصادر، وكذلك طلبت من خلال أمينة المكتبة الرئيسية، مراجع ورسائل جامعية غير متوفرة في درم.

ذكرت للمشرف ما قمت به واستمعت منه ولنصائحه وتوجيهاته. طلب مني ان أكتب أوراقاً أولية يتناول كل منها جزءاً من فصل إذا توفرت لدي مصادر تساعدني على ذلك. وإذا وجدت فجوة في المعلومات فلي ان أتخطى الفصل او الجزء إلى ما يليه. وأقترح أن أبدأ بالفصل الثاني (صناعة النفط في المنطقة) والثالث (عائدات النفط لكل إمارة) لوجود المعلومات الاحصائية حولهما في درم ومحيطها، وعلى أن أزور مكتب السجل والأرشيف البريطاني واطلع على وثائق حكومة الهند ووزارة الخارجية البريطانية والتي سوف تساعدني على كتابة الفصل الأول المتعلق بأمارات الخليج قبل اكتشاف النفط في أي منها. أعطاني شهراً للقراءة العامة على ان التقي به مرة كل أسبوع لأطلع على ما قرأت وما أحتاج إلى الإطلاع عليه، وبعد ذلك أبدأ في كتابات أوراق أولية يختص كل منها بجزء من فصل.

في اليوم الذي تم فيه قبولي للدراسة في جامعة درم أعلن استقلال قطر وهو يوم ٣ سبتمبر ١٩٧١. سمعت بذلك من الزملاء في درم الذين كانوا يهنئونني بالاستقلال ويتندرون على حاكم قطر الذي أضطر المقيم السياسي في الخليج الى ان يذهب إلى جنيف للحصول على توقيعه على وثيقة الاستقلال، بدل ان يكون في قطر كما يفترض ان يكون. وتشير هذه الحادثة إلى أن حكام الخليج فرض عليهم الاستقلال وكانوا يفضلون ان يبقوا تحت الحماية البريطانية. وقد كانت هذه الحادثة من المآخذ على الشيخ احمد بن علي عندما قامت " الحركة التصحيحية" في عام ١٩٧٢ والتي سوف اتطرق إليها في القسم الثالث من هذا الفصل.

وقد بدأ مسلسل الاستقلال بسبب قرب موعد الانسحاب البريطاني من شرق السويس قبل نهاية ١٩٧١، بدأ من البحرين بتاريخ ١٤ أغسطس ١٩٧١، تلتها قطر واستقلت دولة الامارات في نفس اليوم الذي أعلن فيه الاتحاد بين ست منها بتاريخ ٢ ديسمبر ١٩٧١ ثم انضمت الامارة السابعة رأس الخيمة بعد فترة الى الاتحاد. وفي ٣٠ نوفمبر أنزلت ايران قوات لها في جزيرة أبو موسى بموجب مذكرة تفاهم مع حاكم الشارقة الذي تم اغتياله فيما بعد بسبب توقيعه على تلك المذكرة. كما احتلت ايران جزر طنبة الكبرى وطنبة الصغرى التابعتين لأمانة رأس الخيمة دون قبول حاكم رأس الخيمة، قبل الانسحاب البريطاني بيومين في ٣٠ نوفمبر ١٩٧١.

احتج العرب وشجبوا كالعادة في كل مكان احتلال الجزر العربية الثلاث، دون أن يحركوا ساكنا أو يؤثر ذلك في علاقاتهم بايران، بعد أن فشلوا في حماية أوطانهم. وفي درم تجمع طلاب عرب أذكر منهم محمد الرميحي وعلي خشيم ووميض نظمي رئيس اتحاد الطلاب العرب وعلي الزامل وعدد اخر، وشاركت معهم لأول مرة في ذلك الاجتماع الذي احتج على احتلال الجزر العربية ودعا إلى تحرك طلابي في بريطاني من خلال اتحاد الطلاب العرب.

وبعد مدة زارنا في درم المقيم السياسي البريطاني في الخليج والقي محاضرة عن احتلال الجزر وظروف قيام اتحاد الامارات العربية. واذكر انه قال أن اتحاد الإمارات لا يملك السيادة على الامارات المكونة له وإنما يمكن النظر إليه كدولة فدرالية ان شئت أو عدة أمارات، وفقا للظروف ووجهة النظر والمصلحة.

وقد سمعت فيما بعد محمد الكندي، أحد وزراء أول حكومة للاتحاد يقول " كنا سبع أمارات فأصبحنا ثمانى بوجود حكومة الاتحاد إلى جانب حكومة كل أمانة ". وقد استمرت تلك الحالة الملتبسة بين وجود دولة اتحادية وبين احتفاظ كل امانة بحرية قرارها، وكان ذلك سببا في مشاكل الامارات التي راوحت في مكانها من الناحية السياسية، بدستورها الاتحادي الذي لم يتغير فيه عبر خمسة وأربعين عاماً سوى مسماه من مؤقت إلى دائم.

هذا حتى بدأ مؤخرا على أرض الواقع، نمو سلطة وترابط مصالح اقتصادية موحدة في اتحاد الامارات، ربما تؤدي مستقبلا إذا توافقت مصالح الخارج والداخل، إلى قيام سلطة اتحادية موحدة تعزز سيادة دولة الأتحاد على مختلف الامارات المكونة له.

وفي تقديري المتواضع وفي ضوء محبتي للأمارات وأهلها، فان ذلك لن يكون ويستقر الحال به إلا إذا تم إصلاح الخلل السكاني، وبدأت دولة الامارات تنتقل تدريجيا إلى نظام حكم ديمقراطي. وغني عن القول أن الانتقال إلى نظم حكم ديمقراطية، مطلوب أيضا بشكل ملح في قطر وبقية الدول الاعضاء

في مجلس التعاون. فأهل المنطقة وطنيون يحرصون على صيانة مستقبل أوطانهم ووحدة دولهم، وشعب الامارات وحدوي بطبيعته ومن مصلحته قيام كيان سياسي موحد تشكل المواطنة فيه حجر الزاوية وتقف الدولة على مسافة واحدة من كافة مواطنيه وإماراته.

انهمكت في الدراسة فيما تبقى من العام الدراسي، واضعا نصب عيني، ان أقدم قبل سنة من تاريخ قبولي ما يرشحنى للتحويل إلى دراسة الدكتوراة من درجة الماجستير التي قبلت لتقديمها.

بدأت اكتب الاوراق الاولية التي اتفقت مع المشرف على كتابتها، الأمر الذي جعلني أنتقل من القراءة العامة إلى القراءة بقصد الكتابة. فهناك فرق كبير في استيعاب الانسان لما يقرأ إذا كانت القراءة بقصد الكتابة، عندها يكون استيعاب الباحث لما يقرأ اضعاف مضاعفة من استيعابه عند القراءة بقصد التسلية او الإطلاع العام.

ولا يفوتني أن أذكر الدعم والمساندة التي يحصل عليها الطالب من المكتبة، فبمجرد ان تسأل أمينة المكتبة عن كتاب او بحث او تقرير أو رسالة جامعية، تجد أمينة المكتبة قد أخذت على عاتقها دون الحاح منك، البحث والحصول على طلبك من خلال استعارة المصادر بين الجامعات وكأن كل مكتبات بريطانيا هي مكتبة جامعتك. وقد استفدت من تلك الخدمة العلمية الرائعة وفهمت لماذا يتقدم البحث العلمي عندهم مقارنة بجامعات الوطن العربي، حيث لا توجد في المكتبات أغلب المصادر، دع عنك تعذر استعارتها من بقية المكتبات، بل أن بعض المراجع الهامة عندنا ممنوعة من دخول المكتبات الجامعية ومنها بعض كتبي في قطر وربما في بعض دول المنطقة.

وفي سياق بحثي عن المصادر، قمت بزيارة إلى الأرشيف البريطاني في لندن للإطلاع على الوثائق الخاصة بالمنطقة للفترة السابقة على عام ١٩٥٠ والتي تم الافراج عنها أو عن بعضها. ذهبت مع زوجتي بالقطار وأقمنا في فندق قريب من الارشيف البريطاني وبدأت بالإطلاع وتصوير ما احتاج إلى صفحات منه والحصول على مكرو فيلم لوثائق هامة. وفي نفس الوقت أطلعت على ملفات من غير المسموح تصويرها وإنما يحق لي كتابة الملاحظات حول ما جاء بها.

قضيت أياما مأخوذا بما أقرأه اضحك حيناً وأندesh أحيانا أخرى. وقد عدت بحصيلة أضيفها إلى ما توفر لي من مصادر في درم لكتابة أوراق الفصل الاول "أمارات الخليج قبل أكتشاف النفط".

قضينا إجازة نهاية الاسبوع السابقة على زيارتي للأرشيف وعطلة نهاية الاسبوع التالية في لندن زرت مع زوجتي معالم سياحية وتسوقنا في لندن وعدنا إلى درم بالقطار محملا بحصيلة من الوثائق البريطانية حول المنطقة.

حرصت أثناء الفصل الدراسي في درم على حضور محاضرات بعض الاساتذة في الإدارة العامة والاقتصاد والمالية العامة والتنمية، ولم يفتني ان أحضر مساقا للمستشرق رئيس دائرة الجغرافيا في جامعة درم بروفيسور فشر حول الشرق الاوسط والذي كان يعمل أثناء الحرب العالمية الثانية في الشرق الادنى ويقم في لبنان كما سمعت.

وقد بدأ فشر محاضراته بتاريخ الإسلام وكيفية انتشاره خلال خمسين عاماً من بداية الهجرة النبوية، إلى أنحاء اسيا وأفريقيا وأوربا. وحذر في محاضراته من سرعة انتشار الاسلام إذا نهض العرب والمسلمون وتوحدت جهودهم. ولعل هذه الرؤية الاستراتيجية المركزية في الغرب هي أساس موقف الغرب من الإسلام ووحدة العرب بشكل عام، خاصة إذا كانت راية الاسلام الحضاري بأيدي وطنية عقلانية معاصرة. الأمر الذي يجعل الغرب بشكل عام، يحاصر كل طرح جاد يجمع بين العروبة والإسلام.

واصلت البحث بقصد كتابة الاوراق الجزئية وكانت إلى حد ما مقبولة من المشرف، الذي يبدي عليها الملاحظات الموضوعية واللغوية، ولكنه يطلب مني مواصلة كتابة تلك الاوراق التي تغطي الفصل الاول والثاني والثالث.

جاء عيد الميلاد ورأس السنة فابتهجنا بسبب ألجو الاحتفالي الذي صاحبهما من خلال مشاهدة التلفزيون وما يبثه من برامج خاصة بالمناسبة. وفي يوم عيد الميلاد استعدنا لاستقبال جيراننا من الانجليز ان زارنا أحد منهم. وعندما بدأنا مشاهدة التلفزيون لم نجد حديثاً إلا عن الديك الرومي وغداء الكرسمس. عشمنا النفس بدعوة او بصحن من غداء العيد نتلقاه من جيراننا. مر الوقت دون أن يطرق البيت علينا أحد بل اننا لم نر أحد يتحرك من بيته، الكل "خامر" على ديكه. وعند منتصف النهار قررنا ان نخرج للغداء في مطعم من مطاعم درم وندنوق الديك الرومي الذي ملأ السمع والبصر منذ ان اقترب موعد عيد الميلاد المجيد.

وأذكر طرفة سمعتها خلال ذلك اليوم في مسرحية للأطفال يبثها التلفزيون حول علاء الدين ومصباحه السحري. فقد جاء ابن احد العائلات بمصباح علاء الدين لوالدته الارملة وقال لها اريد ان أحقق لك أعز أمنية لديك. وفرك المصباح وإذا بالمارد يظهر في شكله الضخم المهيب "شبيك لبيك" فقال الشاب لأمه اطلبي ما تتمنين. قالت الارملة " اريد ما يدفني في ليالي الشتاء " أختفى المارد وظهر بعد حين حاملاً بطانية للام الارملة التي خاب ظنها عندما لم يدرك المارد حقيقة مرادها.

كان شتاء عام ١٩٧١ في درم ابيض ناصعاً، يتساقط الثلج ويغطي الشوارع والحدائق وأسقف المنازل. كان الليل مشعاً بعد أن كان داكناً قاتماً تبدأ ظلمته من حوالي الساعة الرابعة مساءً. وبالصدفة تذكرت وصف طه حسين لليلة مولد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في كتابه على هامش السيرة، حيث أشعت السماء نورا وغردت الطيور في الليل وتكلم الشجر والحجر ابتهاجا بمولد محمد.

بعد انتهاء اجازة عيد الميلاد ورأس السنة ذهبت لمقابلة المشرف لأعرض عليه ورقة أعدتها على مهل حول الغاز الطبيعي في المنطقة. سلمته الورقة المكونة من حوالي ٥ صفحات فبدأ يقرأها وعندما أنتهى منها سألتني، لماذا حملت شركات النفط مسؤولية حرق الغاز الطبيعي المصاحب، وهل كان بإمكانها أن تنتج النفط دون أن تستخرج معه الغاز المصاحب؟ وهل كان للغاز سوق عندما كانت الشركات تحرقه؟ وأردف قائلاً لماذا قمت بتقدير قيمة الغاز المحروق وتحميل شركات النفط المسؤولية عن حرقه؟ هل درست اقتصاديات الغاز في المنطقة وهل تعرف من كم نوع من الغاز يتكون خليط الغاز الطبيعي وماذا يمكن الاستفادة منه في حالة كل غاز من مكونات الغاز الطبيعي؟.

كان بون-جونز يتكلم بحده على غير عادته فأدركت أنني ربما أكون قد أخطأت عند الحديث عن حرق شركات النفط للغاز الطبيعي المصاحب بدل إعادة حقنه إلى حين تطوير مشاريع تستفيد من استخدامه كطاقة او مواد خام، على الاقل منذ أن اصبح الغاز يستخدم في الصناعة لهذين الغرضين.

حاولت أن أبدي وجهة نظري وأدافع عن ما جاء في ورقتي ولكنه لم يكن يتحمل النقاش، حيث قاطعني قائلاً باللغة الانجليزية LOOK بمعنى أنتبه أو أسمع، سوف اعطيك اسبوعاً لتكتب ورقة أخرى تبين أولاً أنواع الغازات التي يتكون منها خليط الغاز الطبيعي المصاحب بشكل عام وبيان أوجه الاستخدام المتاحة لكل نوع منها ومتى اصبح ذلك الاستخدام اقتصادياً في المنطقة. وأنهى اللقاء قائلاً موعداً الاربعاء القادم في نفس الوقت.

خرجت من عند المشرف مضطرباً ابحت عن مكان أجلس فيه وحدي حتى استوعب ما حدث ولماذا؟ وكيف استطيع مواجهته، في وقت كنت أعمل فيه من أجل قبول بحثي ليكون بقصد نيل درجة الدكتوراة بدل درجة الماجستير التي تم قبولي عليها. ذهبت إلى حديقة صغيرة بقرب المكتبة وجلست وحيداً أحاول أن أفكر في الموقف وكيف أواجهه.

لم أستطع التفكير بهدوء فلجأت إلى طريقة للتأمل تعلمتها في درم لتخفيف الضغوط التي أواجهها. والطريقة التي تعلمتها تقتضي الجلوس بشكل عادي والتوقف عن الحركة وعن التفكير الارادي وإغماض العين لمدة ٢٠ دقيقة أردد فيها بهدوء كلمة لا معنى لها دون ان أنطقها وذلك عندما أجد نفسي قد سرحت ومن ثم أعود إلى حالة اللا تفكير، في وقت تقل فيه حاجة الجسم للأوكسجين فيذهب معظم الاوكسجين المتاح للمخ الذي يستعيد قدرته على التفكير بعد أن تهدأ الافكار المتضاربة التي داهمتك.

بعد انتهاء فترة التأمل هذه جالسا في الحديقة أفكر بهدوء في كيفية مواجهة الموقف والعودة الى المسار الذي كنت فيه قبل ان أتطرق لمسئولية شركات النفط عن حرق الغاز المصاحب للنفط في المنطقة. كان النهار قد انتصف وما زالت أمامي عدة ساعات للقيام بجولة على المكتبات القريبة أبحث فيها عن مصادر تساعدني في الإجابة على التساؤلات التي طرحها المشرف، كي أعد ورقة أخرى عن الغاز الطبيعي المصاحب في دول المنطقة وما هي البدائل التي كانت متاحة في كل فترة من الفترات للاستفادة منه بدل حرقه.

نهضت من جلسة التأمل بعد ان استعدت رباطة جأشي وخرجت من الحديقة ذاهباً للكفترية حيث شربت شاياً وربما أكلت وجبة خفيفة قبل أن أقوم بجولة على المكتبات القريبة، بحثاً عن مصادر جديدة حول اقتصاديات الغاز الطبيعي وصناعته وأوجه استخدامه. وبعد جولة شملت ثلاث مكتبات ذات علاقة، استمرت عدة ساعات خرجت بحصيلة من المصادر والمراجع استعرت ما يمكن استعارته منها وأخذت ملاحظات عن البقية. عدت للبيت محملاً بما سوف أنكب على دراسته لمدة أسبوع.

أخبرت زوجتي بما حدث بشكل مخفف وقلت لها أنني اعتباراً من صباح الغد سوف أعتكف لمدة أسبوع في البيت في غرفة المكتب ولن أغانرها حتى المساء إلا لواجب أو حاجة أو الذهاب الى المكتبة. حزنت زوجتي لما سمعته ولكنني طمأنتها بأنني قادر على تجاوز المشكلة بإذن الله، كنت حريصاً ألا أسبب لها قلقاً بينما هي على وشك الولادة المنتظرة.

نهضت من النوم في الصباح الباكر وذهبت إلى المكتب أرتب ما لدي من مصادر وأفكر في وضع مخطط جديد لورقة الغاز بعد قراءة عامة اولية جديدة قمت بها. وبالفعل مكثت معتكفا في غرفة المكتب وزوجتي لا تدخر جهدا في توفير الجو المناسب لي و مراعاتي بالشاي والقهوة والوجبات الخفيفة وتوفير الهدوء في البيت من الصباح الباكر حتي المساء المتأخر، من صباح الخميس حتى مساء الثلاثاء الذي يليه، لا أترك الكرسي إلا لواجب أو حاجة أو زيارة سريعة الى المكتبة. وقد كانت تلك الايام الستة من أكثف أيام دراستي وأكثرها تركيزا وتحديا لمستقبلي الدراسي.

عندما بدأت القراءة والبحث اكتشفت كم هو الغاز مركب من عدة غازات وما هي المجالات الاقتصادية للاستفادة من كل نوع منه في كل فترة زمنية، وأعددت بحثا عن إنتاج الغاز الطبيعي في المنطقة وأشكال استخداماته من حوالي عشر صفحات ضمنته رسومات توضيحية. وقد فتح لي ذلك البحث أفقا رحبا للتعرف على الغاز وإمكانياته الاقتصادية والصناعية وبدائل استخداماته، قدمته الى المشرف في الموعد الذي حدده بيوم الاربعاء التالي.

نظر المشرف في الورقة وقرأها بشكل سريع وكنت أراقب قسمات وجهه فوجدتها ساكنة وفي بعض المواقع، مستحسنة في بعضها الآخر. وبعد أن أنهى من القراءة قال لي هذه الورقة افضل من سابقتها، واصل كتابة الاوراق وسوف أقيم عمك قريبا.

بعد بضعة اسابيع من تلك الحادثة وصلنتي رسالة من كلية العلوم الاجتماعية تفيد تحويل بحثي من رسالة لنيل الماجستير إلى رسالة لنيل الدكتوراه، وذلك بعد حوالي ستة شهور من قبولي في جامعة درم.

وجدير بالذكر أن تلك الورقة أصبحت صالحة بعد تنقيحها وتحريرها، لان أضمنها رسالة الدكتوراة في الصفحات من ٦١-٦٦. كما أن الجهد الذي بذلته فيها قد أفادني جدا عندما أصبحت عضوا في مجلس إدارة "شركة قطر غاز" المشتركة بين شركة شل والمؤسسة العامة القطرية للبتترول، وقمت بزيارة اليابان عام ١٩٧٥ بتلك الصفة وبصفتي مدير التسويق والنقل في المؤسسة العامة القطرية للبتترول، للتعاقد على بيع الغاز الطبيعي المسال الذي كانت الشركة تنوي تسييله من غاز حقل الشمال إلى LNG، فقد عدت لأكتب بحثا حدثته عندما ارتفعت أسعار البتترول، حددت فيه أفضل الخيارات المتاحة لقطر للاستفادة من احتياطي الغاز الطبيعي غير المصاحب الذي أكتشف في حقل الشمال بدل التسرع في تسييله من أجل التصدير. (١)

وصلنتي رسالة التحويل الى دراسة الدكتوراة في موعد أبكر مما توقعته، حينئذ كانت زوجتي قد أهدتني بتاريخ ٣ فبراير ١٩٧٢ أجمل طفلة وأحبها إلى نفسي ابنتي "العودة" ضحى كما تسمي نفسها عندما رزقنا الله بخليفة وصبا بعدها، وخشيت منافستهما في حبي الكبير لها. وقد كان قدومها بشارة خير انحلت بعدها العقدة التي برزت لي فجأة في دراستي.

وقد شغلنا بعض الوقت بمولد ضحى وإعادة تنظيم وقتنا في ضوء حاجتها للرعاية والعناية وسهر الليل. وأذكر ان اختصاصية في نظام الصحة الوطنية في تقديم الاستشارات لوالدي اول طفل في

العائلة، كررت زيارتها لنا وزودتنا بالنصائح ومنها أن ندخل الطفلة في نظام حياتنا بدل ان نجعلها مصدر اضطراب فيها، وأن نبدأ بعد ستة أشهر نعطها قليلا من طعامنا حتى تتعود على مذاقه.

أصبحت أبو ضحى عند من يعرفني عن قرب. جاءتنا التهاني من الاهل والأصدقاء في قطر، وأبى كل من خالد الريان وعبد الله الكبيسي اللذين كان بكر كل منها صبياً ، ألا ان يشاغباني بمراسلات متبادلة اقترحا علي فيها كافة وسائل التخلص من البنات دون وئدها لأن ذلك سيعرضني للعقوبة في بريطانيا!! ومن طرفي وبمساعدة زميلي في درم عبد الجليل الغربي الذي كانت بكره بنتا، رددنا على رسائلهما بصفتهم أبا جهل وأبا لهب من عرب الجاهلية اللذين أبقاها الله مثالا على الجهل والانتقاص من قيمة النساء شقيقات الرجال.

ولا يفوتني ان أذكر بأن أول من زارني في درم من أهل قطر بعد ولادة ضحى هو مقبل الهتمي صديق شقيقي يوسف وزميله في بغداد وفي نادي التحرير بقطر. أخذناه في الفولس وجن الجديدة لزيارة ريف درم الحميل المغطى بما تبقى من ثلج الشتاء، وقضينا معه أياما طيبة ذكرتني بطيبة أهل قطر وبخاصة فريج الهتمي. ولعل مقبل هو أول من رأى ضحى وهي في المهد من أهل قطر.



٢-١٠ صورتي في فناء منزلنا الأول في درم - بريطانيا : شتاء ١٩٧٢



(10.2) مع الصديق مقبل الهتمي اول من زارنا في درم بعد ولادة ضحى : اواخر شتاء ١٩٧٢

"الحركة التصحيحية " ١٩٧٢ في قطر

في ٢٢ فبراير ١٩٧٢ تولى الشيخ خليفة بن حمد مقاليد الحكم في قطر واضعا نهاية للتسوية التي تمت تحت اشراف سلطات الحماية البريطانية وبضمانتها في ٥ أكتوبر ١٩٦٠، والتي تولى بموجبها الشيخ أحمد بن علي الحكم وأصبح الشيخ خليفة بن حمد وليا للعهد ونائب الحاكم. وذلك بعد أن نالت قطر رسميا استقلالها عن بريطانيا.

وقد تزايد نفوذ الشيخ خليفة منذ أن تولى وزارة المالية وأشرف على الإدارة العامة وتركزت سلطته، بينما تأكلت سلطة الشيخ أحمد وقل نفوذه داخل الادارة العامة وابتعد تدريجيا عن مركز القرار، لاسيما في سنواته الاخيرة.

وفي تقديري أن سلطة الشيخ خليفة قد نمت وتكرس نفوذه من خلال توليه وزارة المالية واشرافه مباشرة على الادارة العامة خاصة بعد أن ألغى بصفته نائب الحاكم، منصب مدير عام الحكومة الذي كان يشغله حسن كامل بتاريخ ١٠/٧/١٩٦٧ بموجب مرسوم بقانون رقم(٢) لسنة ١٩٦٧، دون مقاومة من حسن كامل أو اعتراض مما يشير إلى أحتوى الشيخ خليفة له.

وبذلك أصبح الشيخ خليفة بمثابة رئيس الوزراء قبل أن ينشأ هذا المنصب رسميا، إضافة الى مناصبه السابقة دون أن يكون للشيخ أحمد نفوذ على الادارة العامة أو عين عليها، كما أراد من خلال تعيين حسن كامل مديرا عاما لحكومة قطر، والذي اصبح مستشارا للحكومة فقط. وربما يكون ذلك بداية تبعية حسن كامل وغيره من كبار الموظفين المدنيين والعسكريين للشيخ خليفة الذي احتفظ بحسن كامل مستشارا له وموضع ثقته بعد أن تولى الحكم لعدة عقود.

وبصدور النظام الأساسي المؤقت في عام ١٩٧٠ أصبح الشيخ خليفة رئيسا لمجلس الوزراء ووزيرا للمالية والبتترول فضلا عن كونه وليا للعهد ونائب الحاكم، بينما أكثر الشيخ احمد من السفر حتى قيل أنه كان يقضي ستة أشهر في السنة خارج البلاد، بعضها في رحلات الصيد في إيران والصيف في سويسرا.

وقد تكرست تلك الصورة عن الشيخ أحمد في الداخل عندما طبع يوم (غرقت سفينه) كان جزءاً من حملته للمقناص في إيران وتوفي بعض من أهل قطر عليهم رحمة الله، الذين أرسلوا في مقدمة حملة رحلة الصيد. كما جاء توقيع الشيخ أحمد على وثيقة الاستقلال في جنيف يوم ٣ سبتمبر ١٩٧١ بدل ان يكون توقيعته على الاستقلال وحضوره في الدوحة مما زاد من انطباع انصرافه عن شؤون الحكم التي تركها للحاكم الفعلي الشيخ خليفة بن حمد.

وقد تصرف الشيخ خليفة بشكل كسب فيه كبار الموظفين في الداخل وأقنع الخارج بأن تغيير الحاكم اصبح أمرا ضروريا ولن يؤثر على المصالح الدولية والإقليمية. وقد ساعده نمو عائدات النفط في تلك الفترة والتي ارتفعت بشكل ملحوظ منذ عام ١٩٧٠ (٢). وذلك بسبب تراجع الاحتياطي العالمي من النفط بالنسبة للاستهلاك السنوي العالمي عليه، واتجاه شركات النفط الكبرى إلى رفع أسعار النفط بسبب قرب دخول نفط بحر الشمال الذي تكبدت الاستثمار في إنتاجه بتكلفة تناهز ثلاثة أضعاف أسعار النفط في عام ١٩٧٠.

ويلاحظ أن الشيخ خليفة في غياب الحاكم عن البلاد، تمهيدا لكسب رضا القطريين وتحقيقاً لبعض مطالبهم، قد أصدر بتاريخ ١٩٧١/٣/٣ قانون رقم (٤) بزيادة العلاوات الاجتماعية الشهرية الخاصة بالموظفين والعمال القطريين، وبتاريخ ١٩٧١/٣/١٠ أصدر القانون رقم (٥) لسنة ١٩٧١ بزيادة المعاش المستحق وفقا للقانون (٩) لسنة ١٩٦٣ بتنظيم الضمان الاجتماعي. وبتاريخ ١٩٧١/٨/٢ اصدر الشيخ خليفة أيضا قانون رقم (٩) لسنة ١٩٧١ بشأن إعفاء مستهلكي التيار الكهربائي من الديون المستحقة عليهم حتى نهاية سنة ١٣٩٠ هجرية (١٩٧٠)، وإعفاء مستهلكي الكهرباء القطريين ذوي الدخل المحدود من دفع رسوم التيار الكهربائي عن خمسمائة وحدة كهربائية شهريا.

وبتاريخ ١٩٧١/٩/٣ يوم استقلال قطر تم تكليف الشيخ خليفة القيام بأعمال وزير الخارجية بموجب المرسوم رقم (٣٢٢) لسنة ١٩٧١، الذي وقع عليه نائب أمير قطر رئيس مجلس الوزراء الشيخ خليفة بنفسه إلى جانب أمير قطر الشيخ أحمد.

وإذا نظرنا اليوم إلى زيادة علاوات القطريين ورفع معاشات الضمان الاجتماعي وإعفاء المواطنين من ديون استهلاك الكهرباء إضافة الى قيمة ٥٠٠ وحدة كهربائية مجانا كل شهر في عام ١٩٧١، في ضوء تركز السلطة في يد ولي العهد ونائب الحاكم ورئيس مجلس الوزراء ووزير المالية والنفط والقائم أخيرا بإعمال وزير الخارجية الشيخ خليفة، وأضفنا إليها العلاقات الطيبة التي بدأ الشيخ خليفة يطورها مع من أعتقل وأبعد او عوقب من أنصار حركة ١٩٦٣، فضلا عن قيام الشيخ سحيم بعقد صداقات مع عدد من الخريجين القطريين ربما كانت ايضا لصالح ما ينتظر من تغيير، فاننا ندرك أن الشيخ خليفة بدأ يرتب الامور لصالحه داخليا ويمهد لتوليته مقاليد الحكم. كما يقوم بالاتصالات ويقوم الصلات مع القوى الدولية وإقليمية ويتفاهم معها، في نفس الوقت الذي يقدم عربون الرخاء الذي طال انتظاره بالنسبة للقطريين.

وقد كان له ذلك في ٢٢ فبراير ١٩٧٢ فيما سمي " الحركة التصحيحية " التي حظيت بقبول خارجي، ولم تلق معارضة داخلية تذكر سوى من عبد العزيز بن أحمد نجل حاكم قطر المعزول، الذي تمت السيطرة عليه وابعاده إلى المملكة العربية بالاتفاق معها منذ اليوم الاول.

وجدير بالذكر أن قائد الجيش والشرطة آنذاك، الانجليزي كوكرن الذي سمي نفسه محمد المهدي بعد أن أعلن إسلامه بسنوات، وبقية الضباط البريطانيين، لم يحركوا ساكنا وذلك مؤثر على موقف بريطانيا. هذا بينما شارك بقية العسكريين القطريين والعرب في الجيش والشرطة في الحركة وسيطروا على الوضع.

وحالما تحقق ذلك أصدر الشيخ خليفة في اليوم الثاني للحركة بصفته أمير دولة قطر المرسوم رقم (٣٨) بتعيين الشيخ سحيم بن حمد وزيرا للخارجية بتاريخ ٢٣ فبراير ١٩٧٢ اعترافا بدوره ومساندته وباعتباره شريكا في التغيير. وفي نفس اليوم صدر المرسوم رقم (٣٩) بترقية المقدم حمد بن خليفة بن حمد آل ثاني إلى رتبة لواء وتعيينه قائدا عاما للقوات المسلحة. كما صدر أيضا بتاريخ ٢٣ فبراير المرسوم رقم (٤٢) بترقية الرائد حمد بن جاسم بن حمد آل ثاني إلى رتبة عميد وتعيينه قائدا لقوات الشرطة.

وجاء مرسوم (٤٣) بأيلولة مخصصات الأمير السابق إلى خزينة الدولة، في اليوم الثاني لحركة ٢٢ فبراير ليضع فاصلا بين الخزينة العامة والخزينة الخاصة للحاكم. وذلك بالنص على أن " تؤول إلى الخزينة العامة جميع مخصصات الامير السابق النقدية منها والعينية، التي كانت تدفع له من عائدات البترول والجمارك، كما وتؤول إليها كل ما كانت تدفعه له شركات البترول العاملة في قطر. "

وبذلك أصبح من الواجب توريد كل الإيرادات العامة للميزانية العامة للحكومة. ولكن هذا الإصلاح على أهميته مع الأسف، لم يحدد مخصصات الحاكم الجديد بمبلغ مقطوع من الميزانية العامة كما هو الحال في الكويت. الأمر الذي أدى إلى أن تتضاعف مخصصات الحاكم والأسرة عدة مرات منذ ذلك الوقت بفضل تصاعد عائدات النفط، وبحكم السلطة المطلقة للحاكم وغياب الشفافية نتيجة عدم نشر الميزانية العامة للدولة وحسابها الختامي، حتى يومنا هذا.

وجدير بالذكر أن أول قانون أصدره الشيخ خليفة أمير دولة قطر الجديد في نفس يوم الحركة ٢٢ فبراير ١٩٧٢ كان قانون رقم (٢) لسنة ١٩٧٢ برفع مرتبات ضباط وأفراد قوات الجيش والشرطة، بنسبة ٢٠% على أن تواجه المصروفات اللازمة لتنفيذ هذا القانون من الاحتياطي العام للدولة. ذلك الاحتياطي الذي احتفظ به نفدا في بريطانيا بدل استثماره في مشروعات تنموية داخل قطر، في وقت كانت قطر في أمس الحاجة الى مشروعات التنمية وخلق فرص العمل وتطوير البنية الأساسية.

وتلى ذلك اكمال عربون الرخاء الذي اشرت إليه أعلاه، بصدور عدد من القوانين في أول يوم من قيام حركة فبراير. أولها: قانون رقم (٣) لسنة ١٩٧٢ بتنازل الدولة عن الاقساط المستحقة على المنتفعين من نظام المساكن الشعبية. وبذلك أعفي المواطنين من كل الاقساط التي لم يتم دفعها بعد. وثانيها: قانون رقم (٤) لسنة ١٩٧٢ برفع رواتب موظفي الخدمة المدنية، بنسبة ٢٠% على أن تواجه المصروفات من الاحتياطي العام للدولة. وفي اليوم الثاني من الحركة ٢٣ فبراير صدر القانون رقم (٥) بزيادة المعاش المستحق وفقا للقانون رقم (٩) بتنظيم الضمان الاجتماعي.

وجدير بالملاحظة هنا أن اسلوب السلطة في قطر وبقية دول الخليج المصدرة للنفط، لا يتجه عندما تسنح الفرصة لإصلاح أوجه الخلل المزمنة ومنها الخلل الاقتصادي الناتج عن أسهالك عائدات النفط بدل استثمارها في أصول تدر دخلا وتوفر فرص عمل. وذلك بتقليل الموجه من عائدات النفط للاستهلاك مثل مخصصات الأسرة الحاكمة والنفقات العامة الجارية والتحويلية الشبيهة.

وإنما نجد اهتمام السلطة في الغالب، يميل لتوزيع جزء من الغنائم على الشعب من باب الترضية وإجراء إصلاح أوجه الخلل المزمنة. وذلك بدل التوجه لإصلاح اقتصادي وإنتاجي يتم بمقتضاه تدريجيا، توجيه مزيدا من عائدات النفط للاستثمار بدل الاعتماد عليها في الاستهلاك وتمويل النفقات الجارية والتحويلية، باعتبار النفط مصدر طبيعي ناضب يجب ان يستفيد منه الجيل الراهن، وكذلك وبنفس القدر تستفيد الأجيال المتعاقبة.

بعد أن استقرت الأوضاع داخل قطر، التفتت السلطة إلى ما تبقى من العقوبات التي نالت أهل قطر بسبب حركة ١٩٦٣، فاتصلت بعبد الله بن علي المسند وأبنائه في الكويت ودعتهم الى العودة إلى قطر وقد عاد آل مسند، ماعدا ناصر المسند شخصيا فقد تأخرت عودته إلى عام ١٩٧٧ كما سبقت الإشارة.

وتم الاتصال بزيميلي أحمد الخال وصدر قرار بتعيينه في وزارة الاقتصاد ثم عين في وزارة الخارجية. وكذلك عين الزميل الدكتور عبد الله الباكر في وزارة الصحة بعد أن تم تجديد جواز سفره الذي لم يجدد منذ أن فصلنا من البعثة الدراسية في القاهرة على أثر توقيعنا على بيان طلاب القاهرة في عام ١٩٦٣.

وبالنسبة لي نالني من الود جانب، فقد وصلتني في بريطانيا بعد أسابيع من قيام الحركة، رسالة من مدير مكتب الامير عيسى الكواري تدعوني الى الانضمام إلى بعثة قطر في بريطانيا بعد أن اتجهت الحكومة الى تسوية كل القضايا العالقة منذ عام ١٩٦٣. وسوف أعود إلى هذه المسألة في سياقها الزمني في الفصل الختامي من هذه الذكريات.

أيضاحات

- ١- علي خليفه الكواري، اقتصاديات الاستخدامات البديلة للغاز الطبيعي غير المصاحب في الخليج العربي، النفط والتعاون العربي، المجلد السادس العدد الثالث ١٩٨٠. ص ٢٩-٧٦.
أنظر أيضا: علي خليفه الكواري، هموم النفط وقضايا التنمية في الخليج العربي، كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، الكويت ١٩٨٥. ص ٧٥-١٣٠.
- ٢- علي خليفه الكواري، تنمية للضياع! أم ضياع لفرص التنمية؟، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، طبعه ثانية ١٩٩٦. ص ٢٨١-٢٨٣.